# صِنَاعةُ البَيَانِ عِبَادةٌ وكِفَاحٌ
# كَلِمَاتٌ مُضِيئةٌ من وَحْيِ الّلســـانِ العَرَبِيّ

د. يوسف العمر*

## المُلخَّصُ

ليستِ الحياةُ في جوهرِهَا ونظامِهَا وتصريفِهَا إلَّا كلمةً، وليسَ الوُجُودُ في بدءِ التَّكوينِ إلَّا كذلكَ؛ أي كلمةً صادقةً نبيلةً، وخلقًا جديدًا تُولَدُ معه الحياةُ في أشرفِ معانيها وأعلاها، وقد نَزَلَتْ هذه الكلمةُ الشَّامخةُ في رُؤُوسِ العَرَبِ وألسنتِهِم مؤذنةً ببدايةِ خلقٍ جديدٍ، ومعنى للحياةِ سامٍ سيملأُ ظهرَ الأرضِ عدلًا وتسامحًا، ويعطيَهَا شكلًا جديدًا تنخلعُ به النَّفسُ من رِقِّ العبوديَّةِ لكلِّ ما سوى اللهِ سبحانَه؛ لتعودَ بيضاءَ نقيَّةً كما لو أنَّها الآنَ تُولَدُ، وهذا أصلٌ من أصولِ هذه الكلمةِ الحُرَّةِ يعودُ بها إلى طُهْرِها المتقادمِ، وجذرها الممتدِّ في عُرُوقِ الأبدِ، ولها أصلٌ ثانٍ يجعلُها عُمْدةً من عُمَدِ التَّكليفِ بهذه الرِّسالةِ السَّماويَّةِ التي نَزَلَتْ بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، فاجتهدتِ العَرَبُ في صقلِها، وكافحَتْ في تهذيبِها، وجاهَدَتْ من أجلِها جهادًا أقعدَهَا مقعدَ الصِّدقِ، وأحلَّها محلَّ الكرامةِ؛ لأنَّها تعبَّدت في هذا المحرابِ الشَّريفِ مؤمنةً إيمانًا لا يخالطُهُ ريبٌ أنَّه المدخلُ الصَّادقُ الذي يحفظُ وجودَهَا، ويجدِّدُ حياتَهَا، وفيه مع ذلك، أو فوقَ ذلكَ، ذكاءُ العُقُولِ وصقلُها وجلاؤُها حتَّى تعودَ بيضاءَ ترِفُّ كأنَّها سيفٌ صقيلٌ.

**الكلماتُ المفتاحيَّةُ:** البَيَانُ، النَّحْوُ، البلاغَةُ، التَّجديدُ.

* مُدرِّسٌ في قسمِ اللغةِ العربية، كُليَّة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الفُرات.

# Statement-making is worship and struggle Luminous words from the Arabic tongue

Youssef Al-Omar*

Abstract

In its essence, its system and its conjugation, life is nothing but a word, and existence in the beginning of formation is only like that. Any honest, noble word, and a new creation with which life will be born in its noblest and highest meanings. God Almighty; To return to pure white as if it is now being born, and this is one of the origins of this free word that brings it back to its antiquated purity, and its root extending in the veins of eternity, and it has a second origin that makes it a pillar from the pillars of commissioning with this heavenly message that was revealed in Arabic .So the Arabs worked hard to refine it, and struggled to refine it, and struggled for it, which made her the seat of honesty, and replaced her with dignity, because she worshiped in this honorable sanctuary, believing in a faith that does not mix with the intellect of doubts, and in the minds of which there is no doubt, and that is the reasoning that preserves his existence. And polished and polished them until they were white and fluttered like a polished sword.

**Keywords:** eloquence, grammar, rhetoric, renewal.

* Lecturer in the Arabic Language Department College of Arts, Al-Furat University.

## مُقدِّمةٌ:

ما زلتُ أقرأُ في القرآنِ الكريمِ قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن، الآية 3-4]، ثمَّ أنصرفُ عنها إلى ما سواها من آي الذِّكرِ الحكيمِ، من غيرِ صبرٍ ولا تدبُّرٍ ولا تفكيرٍ= وما زالنا نقرأُ الكلامَ العربيَّ، شعرًا ونثرًا وخُطَبًا ورسائِلَ، قراءاتٍ غافلةً عن معانيه الحقَّة، حتَّى صارَ الدَّرسُ عجُولاً مثلَ حسوِ الطَّير ماءَ الثِّماد، هذا إذا لم تشوِّه القراءةُ مضامينَ الكلامِ، وتصرفْ مقاصدَه إلى وجوهٍ لم تدرْ في خلدِ أصحابها= وهكذا تعلَّمنا حتَّى اعتدنا الخطأ، وألفنا الخللَ، فنشأَ ناشئُ الفتيانِ منَّا وهو مغموسٌ بهذا الخطأ مبتسمًا راضيًا؛ بل يردِّدُ -إذا لحَّنته، أو بيَّنتَ له ما وقَعَ في أسلوبِهِ من جفاءٍ أو تكلُّف- إنَّا وجدنا آباءَنَا على أمَّةٍ، وإنَّا على آثارِهم مقتدون.

ولكنَّ للأمرِ شجونًا عريضةً، وأبعادًا بعيدةً تجعلُك تقرُّ معي وتؤمنُ أنَّ البيانَ كلمةٌ شريفةٌ جدًّا، ونفيسةٌ جدًّا، وعاليةٌ جدًّا، وعزيزةٌ جدًّا، فسبحانَكَ ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[آل عمران، الآية 191]؛ فهذِهِ كريمةٌ من كرائِم ربِّك على بني آدمَ، وإنَّها لعمري من أنبلِ الكُرُماتِ وأشرفِها وأعلاها، ليس لأنَّها من ربٍّ كريمٍ ـ وهذا حقٌّ ـ بل لأنَّ لله فروضًا وعباداتٍ لا تُقَامُ إلا بصنعةِ البيانِ والتَّبيينِ، ولأنَّ لله أرضًا لا تعمُرُ إلا بألسنةٍ تجيدُ التَّعبيرَ، وأقلامٍ تصيبُ مفاصلَ الحقِّ إذا كتبَتْ، وعقولٍ تضعُ الأشياءَ مواضعَهَا إذا فكَّرت، ويوم رَكِبَنا العجزُ والتَّقصيرُ، وتهافَت النَّاسُ على ما شوَّه الِّلسانَ العربيَّ وحلَّ عُرَاه= ورضينا من الكلامِ بالهيِّنِ اليسيرِ السَّهلِ، ومن الإعرابِ بتسكينِ الأواخرِ= صرنا طرائِقَ قِدَدًا، وتخلَّينا طائعينَ عن المشكاةِ التي تهتدي بها كلُّ أمَّةٍ حريصةٍ أن تصنعَ لنفسِهَا تاريخًا تحترمُهُ الأممُ وتهابُهُ.

ولا تظنَّنَّ أنِّي أحدِّثُك بشيءٍ من ضربِ الخيالِ؛ فالعربُ أمَّةٌ كانت ترى عورةَ المرءِ بين فكَّيه، ويُعَابُ فيها مَنْ لا يُحسِنُ عن نفسه بيانًا، ويُسخَرُ فيها ممَّن شابَ كلامَه لحنٌ، أو سَلَكَ في حديثه مسالكَ التَّقعير والتَّقعيبِ؛ بل خَلَتْ أمَّـةٌ كانت تعتني بتهذيبِ لسانها وصقلِهِ كما تعتني بصقلِ السَّيفِ وتعليمِ فنونه؛ فهذا الفاروقُ عمرُ/ كزَّ سمعُهُ، ورَجَعَ غضبَانَ أَسِفًا من خطأٍ في لسان مَنْ كانوا يتعلَّمون الرَّمي[1]، وكأنَّما أتوا منكرًا من القولِ وزورًا؛ لأنَّه آمَنَ ـ وإيمانُهُ (معرفتُهُ) حُجَّةٌ ـ أنَّ التَّسامُحَ في خطأ اللسانِ يفضي إلى تسامحٍ أدهى وأمرَّ، ويوم حَرَصَتِ الأمَّةُ على نقاءِ لسانها، كافأها اللهُ سبحانَه بصونِ بنيانِها، ومكَّنَ أهلَها في الأرضِ وآتاهم من كلِّ شيءٍ سَبَبًا.

تلك هي حكمةُ ربِّك؛ قضى أن يختصَّ هذه الأمَّةَ العربيَّةَ برسالةِ القرآنِ، ويميزَهَا ممَّن سواها بميزةِ البيانِ، ويقدِّمَها على سائرِ أممِ الأرضِ بكرامةِ اللسانِ العربيِّ؛ ليصِحَّ التَّكليفُ،

(1)- ينظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج1، صـ16-17.

وتضطلعَ بحملِ الرِّسالةِ وتؤدِّيها على وجهها الحقِّ، ولمَّا كانت مسخَّرةً لهذا الغرضِ الشَّريفِ جاءت مصفَّاةً من كلِّ شوْبٍ، مبرَّأةً من أيِّ تقصيرٍ، خاليةً من جوانبِ الضَّعفِ والغموضِ، ولهذا لم يستبعدِ ابنُ جنِّي (ت392هـ) أن تكونَ هذه اللغةُ إلهامًا، وأنَّ اللهَ سبحانه قد هدى أهلَها وأخذَ بأيديهم إلى ما هُدُوا إليه من قُوَّة وإبداع[1]؛ وكأنَّه في هذا قرعَ أبوابَ الغيب، وكُشِفَ له عن المستورِ والخافي، وهذا من أحاسيسِ المخلصين، وفتوحِ العارفين.

فالبيانُ ـ إذا علا وشَرُفَ وطاب ـ صنعةٌ من أعزِّ الصِّناعات وأكرمها، وأكثرها دلالةً على كرم النَّفسِ، ولطْفِ الحسِّ، وصحَّةِ الطَّبعِ، وبُعْدِ الهمَّة، ثُمَّ إنّ الطِّباعَ المعتدلةَ، والخواطرَ المستقيمةَ إذا آتاها الله من البيانِ طرفًا دانيًا أبعدَت أصحابَها عن غلبةِ الهوى، ولؤمِ الطِّباعِ، وغلبةِ الشَّهوات ورذائل الأحوالِ.

وهذا ـ لعمري ـ هو الهدفُ، وتلك هي الغايةُ، وما سوى ذلك عدمٌ أو كالعدم؛ فما يضرُّ المرءَ مادام قلبُه عامرًا بشيءٍ هو الآلةُ والوسيلةُ التي لا يُعرَفُ الله بشيءٍ سواها؟ ولنا في السَّلف رضوان الله عليهم القدوةُ والمثلُ؛ إذ كانوا يتسابقونَ في صنعةِ الِّلسانِ وثيابُهم رَثَّةٌ، ويضعونَ أصولَ العلوم وأصولَ الأشياءِ وهم في فقرٍ وفاقةٍ، فكانوا لذلك خيرَ أمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاس، ملؤوا ظهرَ الأرض عدلًا وتسامحًا، وعلمًا وعزَّةً وشموخًا.

وقد كنتُ ـ وأنا أكتبُ مفرداتِ هذه الورقة ـ أقلِّبُ الفكرَ في أحوالِ من وهبهم الله موهبةَ البيانِ العالي، وأجراه على أطرافِ أقلامهم يتنوَّقونَ منه ما يشاؤون= فما وجدتُّ أحدًا إلا وله عزَّةٌ كعِزَّةِ الملوكِ، ووقارٌ يأخذُك كلَّما نظرتَ إليه، وهيبةٌ تصحبه حيثما غارَ وأنجَدَ، وهذه من بركاتِ البيان العربيِّ الذي نعته التوحيديُّ(414) بكلمةٍ شافيةٍ نختمُ بها هذا التَّقديمَ قال: «فإنَّ الكلامَ صَلْفٌ تيَّاهٌ لا يستجيبُ لكلِّ إنسانٍ، ولا يصحبُ كلَّ لسانٍ؛ وخطرُهُ كثيرٌ، ومتعاطيه مغرورٌ، **<u>وله أَرْنٌ كأرنِ المهرِ وإباءٌ كإباءِ الحَرُونِ، وزهوٌ كزهوِ الملك</u>**، وخفقٌ كخفقِ البرقِ؛ وهو يتسهَّلُ مرةً ويتعسَّرُ مِراراً ، ويذِلُّ طوراً ويعِزُّ أطواراً»[2]. ولو لم تكن للكلمةِ هذه الصِّفاتُ النَّجيبةُ، والنُّعوتُ العجيبةُ، والأثرُ الباقي بقاءَ الميسمِ في جلدِ البعير = ما تيسَّرَ لامرئ القيسِ وأضرابه، ولا الجاحظِ(255هـ) وأترابِهِ أن تبقى مقيمةً كلماتُهُم في صدورِ النَّاس، شامخةً في رؤوسِهم إلى يومِ النَّاسِ هذا.

## البيانُ عِبادةٌ وكِفاحٌ:

(1)- ينظر: الخصائص، ج1، صـ190. يقول: «لانشك في أن الله- سبحانه وتقدست أسماؤه - قد هداهم لهذا العلم الكريم...».
(2)- الإمتاع والمؤانسة، صـ18.

كتبَ عن سلطانِ الكلمةِ وتأثيرِها في الطَّبعِ الحسَّاسِ أئمةُ العربيَّةِ الذين أدركوا بذوقهم اللَّطيفِ وفطرتهم المصفَّاةِ أنَّ الكلمةَ الذَّكيَّةَ الحيَّةَ مثلُها كمثلِ جنَّةٍ برَبْوَةٍ أصابَها وابلٌ فآتت أُكُلَها ضِعفين، لأنَّهم أدركوا كذلك أنَّ الكلمةَ تصنعُ كبرياءً ومجدًا، وتبني أمَّةً وحضارةً، وتشيِّدُ للإنسانِ تاريخًا تحترُمُه الأممُ وتهابُهُ، وقد قرأتُ لأبي عثمان الجاحظ نصًّا في رسائله نفيسًا، هزَّ وجداني هزًّا عنيفًا، وقرعَ أبواب قلبي قرعًا مدويًّا جعلني أقفُ في حضرته مشدوهًا بألفاظِهِ، تائهًا في معانيه، وقد أخذتني حلاوةُ الوجدانِ فحفظتُهُ ولم أَكَدْ أنساه، وما زلتُ أردِّدُ ما حفظتُ حتى افترَّ لي عن قيمٍ ومعانيَ وأهدافٍ كبرى أزالَتْ غشاوتَها وغموضَها قراءاتٌ في مصادرنا العتيقةِ، أكَّدت لي أنَّ اللسانَ الرَّائعَ، والبيانَ العذبَ من خيرِ ما أُعطِيَتْهُ العربُ وأعزِّه وأكرمِهِ وأعلاه، ولولاه ما كرَّمها الله سبحانَه بكرامتهِ الأبديَّةِ الباقيةِ فأنزلَ بلسانها قرآنًا يُتلى آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النهار.

والآن أضعُ بين يديكَ النَّصَّ كاملًا غيرَ مجزوءٍ؛ ليستبينَ الغرضُ، وتقتربَ الصَّورةُ. يقولُ الجاحظ: «إنَّ صناعةَ الكلامِ عِلقٌ نفيسٌ، وجوهرٌ ثمينٌ، وهو الكنزُ الذي لا يَفنَى ولا يَبلَى، والصَّاحبُ الذي لا يُمَلُّ ولا يُغِلُّ، وهو العيارُ على كلِّ صناعةٍ، والزِّمامُ على كلِّ عبارةٍ، والقسطاسُ الذي به يُستَبَانُ نقصانُ كلِّ شيءٍ ورجحانُه، والرَّاوُوق الذي به يُعرَفُ صفاءُ كلِّ شيءٍ وكدرُهُ، والذي كُلُّ أهلِ علمٍ عليه عيالٌ، وهو لكلِّ تحصيلٍ آلةٌ ومثالٌ. **<u>أَلَا إِنَّه ثغرٌ والثَّغرُ محروسٌ</u>، وحمًى والحمى ممنوعٌ، والحَرَمُ مَصُونٌ، ولن تصونَه إلا بابتذالِ نفسِكَ دونَه، ولن تمنَعَه إلا بأن تجودَ بمهجتِكَ ومجهودِكَ، ولن تحرُسَهُ إلا بالمخاطرةِ فيه، والثَّوابُ على قدرِ المشقَّةِ، والتَّوفيقُ على مقدارِ حسنِ النِّيَّة. وكيفَ لا يكونُ حَرَمًا وبه عرفنا حُرمةَ الشَّهرِ الحَرَام والحَلالَ المنزَّل، والحرامَ المفصَّل؟! <u>وكيف لا يكون ثغرًا وكُلُّ النَّاسِ لأهله عدوٌّ، وكلُّ الأممِ له مطالبٌ</u>»**[1].

هذا كلامُ العارفينَ الذين خالطتِ اللُّغة منهم اللَّحمَ والدَّم، وتسرَّبت في أعماقهم كمسْرَى النَّفَسِ في النَّفْس، فطرقوا أبوابَ الغيب بذلك، وانكشفت لهم الحُجُبُ فبانَ منها أنَّ الكلامَ عيارٌ على كلِّ صناعةٍ، ليس في اللُّغةِ والأدبِ فحسب؛ بل في الدِّينِ والسِّياسةِ والاجتماعِ والصِّناعة والطِّبِّ وغيرها من صناعاتِ الحياة وفنونها، وليس من أحدٍ يشكُّ أو يماري أنَّ اللُّغةَ المنضبطةَ، والبيانَ الدَّقيقَ دليلُ العقلِ السَّليمِ، والفطرةِ السويَّةِ، والطِّباعِ المعتدلةِ، وإذا كان العقلُ منضبطًا سليمًا، والفكرُ دقيقًا مستقيمًا= صنعَ الإنسانُ المعجزاتِ، واستحالَ طولُ الأرضِ في

(1)- رسائل الجاحظ، ج4، صـ 244.

عينه شبرًا. ولك أن توازنَ ـ إذا أردتَّ أن تطمئِنَّ لصحَّةِ هذا التَّفسير ـ بين حالِ الصَّدرِ الأوَّلِ بكلِّ ما فيه، وزماننا هذا بضعفِهِ وهمومِهِ وشتاتِهِ، ولكلِّ زمانٍ لسانُهُ الناطقُ بأحوالِهِ وطباعِهِ، وتفقَّدْ معي ما نحن فيه تجدِ الأمرَ واضحًا وضوحَ الشَّمسِ في يوم صائف؛ فلا يمكن أن تستمعَ لخطيبٍ على منبرِهِ إلَّا ولسانُهُ يتلجلجُ بين فكَّيه، وكأنَّه ينطقُ بلسانِ العجم، ولا تستمعُ إلى مَنْ ينطقون بأحوالِ البلاد في أيامها ولياليها إلا وتسمعُ ما يضحكُ الثَّكلى، أمَّا المعلِّم فتقصيرُهُ أفحشُ، وتهاونُهُ أدلُّ على هذه الغفلةِ المفرطةِ، والجهل المركَّبِ، وفي هذا ـ إذا ارتضيته ـ دليلٌ على أنَّ لكلِّ عصرٍ لسانًا يحاكيه، إنْ خيرٌ فخيرٌ، وإنْ شرٌّ فشرٌّ؛ فـ «لكلِّ صناعةٍ ـ كما يقول الجاحظ ـ ألفاظٌ قد حصلت لأهلها بعدَ امتحانِ سواها، فلم تلزَقْ بصناعتِهم إلا بعد أن **كانت مُشَاكَلاً بينها وبين تلك الصِّناعة**»[1].

فهذا وسواه مما تقدَّمَ من كلامِ الجاحظ، دليلٌ بيِّنٌ على أنَّ البيانَ العذبَ، واللسانَ الدَّقيقَ، والأسلوبَ الرَّفيعَ= هو الإكسيرُ الذي يخلُقُ من الضَّعفِ قوَّةً، ومن الفُرقةِ اتِّحادًا، ومن الانكسارِ كبرياءً وعزَّةً وشموخًا، وحسبي وحسبُك أن نستمعَ إلى أبي عثمان الجاحظ مرَّةً أخرى ـ وليست بالأخيرة ـ في نصٍّ نفيس جدًّا، ومهمٍّ جدًّا سيزولُ معه العجبُ، وتنقشعُ الغرابة التي ربَّما تسرَّبت من زعمٍ تقدَّمَ؛ وهو حاجةُ أهلِ الطِّبِّ مثلاً وكلِّ صاحب صنعةٍ إلى هذا الذي نحن فيه؛ «وما كان أحْوَجَنَا وأحوجَ جميعَ المرضى أن يكونَ جميعُ الأطبَّاءِ متكلِّمين، وإلى أن يكونَ المتكلِّمونَ علماءَ؛ فإنَّ الطبَّ لو كانَ من نتائج حُذَّاقِ المتكلِّمين ومن تلقيحهم له، لم نجدْ في الأصولِ التي يبنونَ عليها من الخَلَلِ ما نجِد»[2].

وأنا لا أملكُ إلا أن أقفَ بين يدي الجاحظ وما كتب خاشعًا مُجِلاً لروعةِ ما كتَبَ، مُقِرًّا بأنَّه الصَّوابُ الذي لا يصحُّ غيره، مؤمنًا بأنَّه السَّبيلُ المفضي إلى الكرامةِ الأبديَّة في العاجلةِ والآجلةِ؛ بل ما زلتُ أقرأ كلامه بتدبُّرٍ وأناةٍ «فلا يمرُّ حرفٌ ولا حركةٌ، إلا ويوقِعُ مسرَّةً لو عُدِلَت بمسرَّاتِ أهلِ العاجلةِ، منذ خلق اللهُ ((آدم)) إلى أن [يطوي] ذرِّيتَه من الأرض، لكانت الزَّائدةَ على ذلك، زيادةَ الُّلجِّ المتموِّجِ على دمعةِ الطِّفلِ، والهضْبِ الشَّامخِ على الهباءةِ المنتفضةِ من

(1)- الحيوان، ج3، صـ368.

(2)- المصدر نفسه، ج5، صـ59.

الكِفْلِ»[1]. كما يقولُ المعري. تلك هي حلاوةُ الوجدان كما تسمّيها العرب، أو لذَّةُ المعرفة بحلاوةِ ما يجدُ المرءُ من صوابٍ يوافق ما هو فيه، أو يقصد إليه، أو يبحث عنه.

وعليه، فإنَّ نهضةَ الأممِ وكبرياءَها وقوَّتها معقودةٌ بنواصي البيانِ العالي والتَّعبُّد في محاريبه، ومن رامَ النهضةَ وهو عن هذا اللسانِ الفصيحِ بمنقطع التراب= فقد رامَ البعيدَ، وشدا المحالَ، ولنا في تاريخنا القدوةُ والمثلُ، فقد قرأتُ للشَّيخ محمود شاكر رحمه الله كلامًا رائعًا يضعُ فيه المتنبي بكِفَّةٍ وسيفَ الدَّولة بكِفَّة أخرى؛ إذ كان المتنبي «عليمًا بأمرِ سيفِ الدَّولة، مدركًا للمكايد السِّياسيَّة التي أحاطت بالرَّجل، خبيرًا بحقيقةِ ما اضطلعَ سيفُ الدَّولة بأعبائِهِ من إيقاظ الهمم العربيَّة،/ مستيقنًا من أنَّ غرضَ سيفِ الدَّولة فيما فعل، إنَّما هو ضرب الضَّربةِ القاضيةِ على الفتنِ التي أوهت قوَّةَ الدَّولة العربيَّة وفتَّتْ في عَضُدها.. وكان أبو الطيب نفسُهُ، يرمي بكلِّ نفسه إلى هذا الغرض الذي يسدِّدُ إليه سيف الدَّولة، فكان اتفاقهما في الغرض سببًا لاتّصالهما وتوافقهما وتفاهمهما، ولما تمَّ بينهما من المودَّة والحبِّ والكرامةِ»[2].

وكأنَّ شاكرًا يريد أن يقولَ: إنَّ الزَّمن الذي يلِدُ سيفًا صقيلاً يصونُ أرضًا ويحمي ذمارًا، لابدَّ أن يُولَدَ معه قلمٌ صقيل، وعقلٌ نبيل، وإرادةٌ حذَّاء لا ترضى بمنقصة وذلٍّ، وهذا ما كان في رجلين عربيين وجد كلٌّ منهما في صاحبة قطعةً منه، وهدفًا نبيلاً يوافق هواه، فآوى كلٌّ منهما إلى الآخر، أو سكن الأوَّلُ في الثاني سكونَ السَّيف في غمده، وهذا معنى مقولة الجاحظ التي تقدَّمَ ذكرها عن البيان: (إنه لكلِّ تحصيلٍ آلةٌ ومثال)، فالسَّيفُ المجرَّدُ الذي لا يتجرَّدُ إلى جواره لسانٌ حاذقٌ، وعقلٌ ذكيٌّ، يكِلُّ مع تقادم الأيام وتتالي الحوادث، ثمَّ تفتُرُ همَّتُهُ ويعلوه الصَّدأ، واللسان الحادُّ الذي لا يجد له سيفًا يحقِّقُ أحلامه وآماله = مصيرُهُ محتومٌ، ورسالتُهُ مبهمةٌ، أو على الأقل لا يمكن أن يحمِلَ صاحبُهُ هدفًا ساميًا، أو أن يمدَّ بصره إلى مجدٍ عزيزٍ، كمثلِ المجد الذي تقلَّبَ على جمره أبو الطيب المتنبي، وتعلَّق بأطرافه، وعاش حياتَه له.

وعدٍّ عمَّا مضى وراجِعْ مقالةَ الجاحظ في نهاية نصِّه؛ أعني قوله: **(وكيف لا يكون ثغرًا وكُلُّ النَّاسِ لأهله عدوٌّ، وكلُّ الأممِ له مطالبٌ)**، وكأنَّه ـ إذا تصورَّت حاله ـ واقفٌ على منبره وفي وجنتيه نيرانُ الغضب، ولهيبُ الغيرة على حمًى أوشك أن يُستبَاحَ ويُؤتَى من أعزِّ جوانبه وأكرمها، وما أحسنَ أحدٌ من أهلِ العلم أوَّلِهم وآخرِهم إحسانَ أبي عثمانَ عندما وصفَ البيانَ بأنَّه (ثغر)؛ وما

(1)- رسالة الغفران، صـ82.

(2)- المتنبي، محمود شاكر، صـ304.

هي إلا مقالةُ رجلٍ ألمعيٍّ خبيرٍ بجوهر ما يرى ويسمع، وما نعتُه البيانَ بهذا النَّعتِ العبقريِّ إلا دليلٌ على أنَّ للأمر شجونًا بعيدةً على المرء أن يُلِمَّ بأطرافها، ويحتاطَ لها، وَمَنْ علَّمَ النَّاسَ العلمَ وهو غافلٌ عنها فقد ضَلَّ وأَضَلَّ، وأمرُ هذا ظاهرٌ لا يخفى على مَنْ تأمَّله، ولا عَجَبَ فيه ولا منه؛ «فإنَّ اللغةَ يسقطُ أكثرُها ويبطُلُ بسقوط دولةِ أهلها ودخولِ غيرهم عليهم في مساكنهم، أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم. فإنَّما يقيِّدُ لغةَ الأمَّةِ وعلومَها وأخبارَها قُوَّةُ دولتِها ونشاطُ أهلها وفراغُهم. وأمَّا مَنْ تَلِفَت دولتهم، وغلب عليهم عدوُّهم، واشتغلوا بالخوفِ والحاجة والذُّلِ وخدمةِ أعدائهم، فمضمونٌ منهم موتُ الخواطر. وربَّما كان ذلك سببًا لذهاب لغتهم، ونسيانِ أنسابهم وأخبارهم، وبيودِ علومهم. هذا موجودٌ بالمشاهدة ومعلومٌ بالعقلِ ضرورة»[1].

فقوةُ الأمَّة وقوَّة كلمتها وبيانها عن تفكيرها وخواطرها وأخبارها وشيمها = وجهان لعملة واحدة كما يقولون، ولا تظنَّ أنَّني خلطتُ بين العناية باللغة واحترامها والذَّود عنها، وبين العناية بالبيان وصقلِهِ وتهذيبه ليسموَ إلى آفاق الجمال= هذا لم يكن؛ وإنْ كان الأمران من بابٍ واحدٍ؛ لأنَّ البيانَ الجميل، واللسانَ الرائع يجب أن يكونَ صحيحًا سليمًا من اللحنِ، وليس حتمًا عليك مقضيًّا أن تدخِلَ إلى العبارة الصَّحيحة ـ إذا أدَّتِ الغرض ـ اللفظَ المدبَّجَ، والتركيبَ المُونِقَ، ولكلٍّ منهما؛ أعنى المستقيمَ، والمستقيمَ الجميلَ الحسَنَ بعبارة شيخ النحاة [2] بابُهُ ومقاصدُهُ وأغراضُهُ، والأوَّلُ مفروغٌ منه، وإلى الثاني يجب أن تُشَدَّ الرِّحالُ، ويعقدَ العزمُ، فبه يُعَادُ تركيب الفكرة المُلِلَّةِ الخاملةِ، والأشياءِ المرميَّة على رفوفِ السَّقم أو النِّسيان؛ هو الآلة التي تعطي الأشياءَ مذاقًا جديدًا، وتخلقها خلقًا جديدًا على خلاف ما ألِفَ النَّاس أو اعتادوا؛ فـ «نقلُ حقائقِ الدُّنيا نقلاً صحيحًا إلى الكتابةِ أو الشِّعرِ، هو انتزاعها من الحياة في أسلوبٍ وإظهارها للحياة في أسلوبٍ آخرَ يكون أوفى وأدقَّ وأجملَ، لوضعه كلَّ شيءٍ في خاصِّ معناه وكشفه حقائقَ الدُّنيا كشفةً تحت ظاهرها الملتبس. وتلك هي الصِّناعة الفنيَّة الكاملة؛ تستدركُ النقصَ فتتمه، وتتناول السِّرَّ فتعلنه، وتلمسُ المقيَّدَ فتطلقه، وتأخذُ المطلقَ فتحدُّه، وتكشفُ الجمالَ فتظهره، وترفعُ الحياة درجةً في المعنى وتجعلُ الكلامَ كأنَّه وجد لنفسِهِ عقلاً يعيشُ به»[3].

(1)- الإحكام في أصول الأحكام، ابن حزم الأندلسي، ج1 صـ32.

(2)- ينظر: الكتاب، سيبويه، ج1، صـ25-26.

(3)- وحي القلم، الرافعي، اعتنى به: د. درويش الجويدي، ج1، صـ9.

وفي نصِّ الرَّافعي هذا تسكنُ الفكرة التي أحسستُ برنينها في سِرِّ نفسي، ولكنَّ القلمَ صَلَّى وما سبقَ، وقصَّرَ وما لحق لكي يقيّدها بتركيبٍ جيدٍ يظهرها للحياةِ بأسلوبٍ آخرَ يكون أوفى وأدقَّ وأجملَ بتعبيره هو. ورحم الله إسحاق الموصلي الذي قال: «إنَّ من الأشياءِ أشياءَ تحيطُ بها المعرفةُ ولا تؤدّيها الصِّفةُ»[1]، أو كما قالَ الشَّافعيُّ(ت204): «إنّي لأجدُ بيانَها في قلبي، ولكن ليسَ ينطلقُ بها لساني»[2].

وربَّما كان من الجيدِ أن تُوشَّى هذه الكلمة بشيءٍ من الشَّعر الذي ينطوي على الحكمةِ العالية، والأثرِ الحسن، والهدفِ النبيل. فقد رُوِي عن معاويةَ أنَّه قال: «اجعلوا الشِّعرَ أكثرَ همِّكم وأكثرَ آدابكم؛ فإنَّ فيه مآثرَ أسلافكم ومواضعَ إرشادكم، فلقد رأيتُني يومَ الهرير؛ وقد/ عزمتُ على الفِرار، فما يردُّني إلا قولُ ابنِ الإطنابةِ الأنصاريّ: [الوافر]

أَبَـتْ لي عفَّتي وَأَبَى بَــلائي وَأَخْذِي الحَمْدَ بالثَّمنِ الرَّبِيحِ
وإِجشَامِي عَلَى المكْرُوْهِ نَفْسِي وَضَرْبِي هَامَــةَ البَطَل المُشِيحِ
وَقَولي كُلَّمَا جَشَـأَتْ وَجَاشَتْ: مَكَانَــكِ تُحمَدِي أَو تَستَرِيْحِي»[3].

هذا معنى أن ينتزعَ البيانُ الأشياءَ ويخرجَها من مخابئها لتبصِرَ في مكانٍ آخرَ، وهذا معنى أن تعيدَ الكلمةُ الحرَّةُ خلقَ الأشياء لتكونَ أقوى وأدقَّ وأنبلَ، وهو هذا هو أيضًا معنى أن يصنعَ البيان الشَّريفُ للإنسانِ تاريخًا تحتفلُ له الأممُ وتجلُّه وتهابه، والمعنى مبسوطٌ بين يديك فتذوَّقْ روعةَ الأثر، وجلالَ الخبر، ونُبلَ الغرض.

تلك أمَّة خلت؛ كرَّمها الله سبحانه بكرامةٍ شريفةٍ؛ وهي كرامة الِّلسان الفصيحِ المصفَّى، فصانت الأمانةَ وأولتها من عنايتها صدرًا صالحًا؛ بل أَنزَلَتِ الفصاحة منزلَهَا الذي تستحِقُّ، فجعلتها رأسَ المروءة والنَّجابة، وتاجَ العزِّ والرِّياسة. رَوَى التوحيديُّ، قال: «اجتمعنا عند عبد الملكِ بنِ مروانَ فقال: أيُّ الآداب أغلب على الناس؟ فقلنا فأكثرنا في كلِّ نوعٍ؛ فقال عبد الملك: ما النَّاسُ إلى شيءٍ أحوج منهم إلى إقامة ألسنتهم التي بها يتعاورون القولَ، ويتعاطون البيانَ، ويتهادوْنَ الحكم، ويستخرجون غوامضَ العلم من مخابئها؛ ويجمعون ما تفرَّقَ منها؛ إنَّ **الكلامَ**

(1)- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، صـ357.
(2)- الموازنة، الآمدي، ج1، صـ414.
(3)- الكامل، المبرد، ج1، صـ380-381.

**فارقٌ للحكم بين الخصوم، وضياءٌ يجلو ظُلَمَ الأغاليط، وحاجةُ الناس إليه كحاجتهم إلى موادّ الأغذية»**[1].

هذا كلامُ خليفةٍ وولي أمرٍ، عَرَفَ الحقَّ وسبيل النجاة فدلَّ عليه، وأشادَ به، وتجرَّد له، وفهِمَ معناه وأصله وفرعه، وذاقَ حلاوته وجنى ثمره؛ فجعله لكلِّ ما سواه من العلوم والآداب آلةً وأداةً، تُستخرَجُ بها كرائم الأشياء، ويُنَال ذراها وأعلاها، وبه وبأمثاله تُخرَج أضغانُها وتُبعَج أحضانها بعبارة ابن جني[2].

**﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً﴾**. [القصص، الآية34]

ولشرفِ هذا السَّمتِ، وجلال هذا المذهب، ونبلِ هذه الصِّفة، ألبَس الله سبحانه أنبياءَه لباسَ الفصاحة والبيان، وزيَّنَ ألسنتهم بالكلمةِ الطيبة المؤثّرة، والبلاغة الجذَّابة المبتكرة،

(1)- الإمتاع والمؤانسة، ج1، صـ308.

(2)- ينظر: الخصائص، ج1، صـ77.

والكلمة العبقرية النابهة التي تُستَمَال بها القلوب، وتخضع لها الرقاب، وتذل لها النفوس من الطغاة والجبابرة والكفار والمعاندين، فهذا سبيلُ ربِّ العزَّة في بسط سلطانه، ونشر دينه، وإعلاء كلمته، وقد ذكر الجاحظ «أن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق، وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة، كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وأن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب، وتثنى به الأعناق، وتزيَّنُ به المعاني»[1].

هذا، والعرب أمَّةٌ أنزلَ اللهُ سبحانه الحكمةَ في قلوبها وأجراها على ألسنتها، مصقولةً مصفَّاة مرهفة، وضعوا ـ بحكمتها وتمامها ـ الأشياءَ في مواضعها اللائقة، وقاسوا الأشباه على النظائر؛ ولهذا شبَّهوا الكلمة القوية، والبيان الصائب، بالسحر . «قال عمر بن عبد العزيز لبعض من أحسن الكلام في طلب حاجته: ((هذا والله السِّحرُ الحلالُ))»[2]. «وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من أفضل ما أُعطِيَتْه العرب الأبيات يقدّمها الرَّجل أمام حاجته، فيستعطف بها الكريم، ويستنزلُ لها اللئيم»[3]. والأخبار في هذا كثيرة والأثر بها مستفيض، وما على المرء إلا أن يأخذ بنفسه إلى هذا المضمار الشريف، يتعلم منه كيف يبين عن سرِّ نفسِهِ، ويترجم ما جاش به صدرُه، وانطوت عليه جوانحه؛ فإنَّه الأنيس ساعة الوحشة، والقرين الذي يفصح عن مضمرات النفس، ولا ينطق إلا بما تحبُّ وتهوى.

فكم من مُمتَحَنٍ نَجَا من الهلاك بكلمةٍ ذكيَّةٍ أصاب بها المحزَّ، وكم من غافلٍ سادرٍ ما أيقظته إلا كلمةٌ حيَّةٌ أشعلت همَّتَه، وكم من حربٍ أوقدها شطرُ شعرٍ من لسانٍ أَحَدَّ من السِّنان، وكم من أخرى ضَروسٍ أطفأت لهيبها حكمةٌ واعيةٌ فَعَلَت في النفس الثَّائرة فعلَ الماء في النار؛ ولخطورة الكلمة، وبُعْدِ مداها، وتأثير صداها جعلها ربُّنا سبحانه سلاحًا بأيدي الأنبياء والمرسلين، عندما كلَّفهم بإبلاغ رسالته إلى أقوام يعلم منهم اللدد والخصومة، فقال جلَّ شأنُه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً﴾ [مريم، الآية97]؛ هم أصحاب خصومة وكبرياء ولجاجة وعناد، عَلِمَهُ منهم الذي يعلمُ السِّرَّ وأخفى، فذكرَ لنبيه عليه السلام «حالَ قريشٍ في بلاغةِ المنطقِ، ورجاحةِ الأحلام، وصحَّة العقول، وذكر العرب وما فيها من الدَّهاء

(1)- البيانُ والتَّبيينُ، ج1، صـ14.

(2)- الحيوان، ج6، صـ213.

(3)- الكامل، ج1، صـ177.

والنَّكراء والمكر، ومن بلاغة الألسنة، واللدد عند الخصومة، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب، الآية19].. وقال: ﴿وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة، الآية204]...»[1]. والقرآن الكريم حافل بهذا الحديث الذي يتكلم على أنَّ للعرب لسانًا ضاريًا كضراوةِ الخمر في قلب شاربها؛ بل «ضربَ اللهُ عزَّ وجلَّ مثلاً لعيّ الِّلسانِ ورداءةِ البيانِ، حينَ شبَّه أهلَه بالنِّساءِ والولدان: فقالَ تَعَالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزُّخرف، الآية18]»[2].

وقد أدرك النبيُّ الكريم الذي آتاه ربُّه جوامعَ الكلم= خطورة الكلمة وأثرها في استمالة القلوب، وفعلها في هزّ النُّفوس وإيقاظها، ولأبي عثمان الجاحظ كلمةٌ عاليةٌ جدًّا عن تأثير الكلمة وأثرها في القلوب الحية، لابد من نقلها قبل أن نصل إلى المأثور النبوي الشريف. يقول أبو عثمان: «فاذا كان المعنى شريفًا والَّلفظُ بليغًا، وكان صحيح الطَّبعِ بعيدًا من الاستكراه، ومنزَّهًا عن الاختلالِ مصونًا عن التكلُّفِ، صنَعَ في القلوب صنيعَ الغيثِ في التُّربةِ الكريمةِ. ومتى فَصلتِ الكلمةُ على هذه الشَّرِيطة ونفذَتْ من قائلها على هذه الصِّفةِ، **أصحبها اللهُ من التَّوفيق ومنحها من التأييد، ما لا يمتنع معه من تعظيمها صدورُ الجبابرة، ولا يذهل عن فهمها معه عقولُ الجَهَلة**»[3].

وكتاب (البيان والتبيين) كتابٌ عظيم القدر في هذا الفنّ، ذائعُ الصيت، منمَّقُ البيان، محكمُ التَّركيب، موشًّى بضروبٍ من الخُطَب والأشعار والحكم والأحاديث، لا يستغني عنه مَنْ أرادَ أن يبين عن نفسه بالكلام الحسن، والتركيب الجميل، والعبارة المؤثرة التي تصنع في القلوب صنيعَ الغيث في التربة الكريمة كما يقول صاحبه.

ومن القرآن ـ وهو رأس البيان والحديث فيه يطول ـ ننتهي إلى البلاغة النبوية؛ لنقف عند ثلاثة أحاديثَ نبويَّةٍ أشار فيها النبيُّ ﷺ إلى أنَّ البيانَ مصيدةُ القلوب، وشَرَكُ الأفئدة، وأنه السلطان الذي ليس بينه وبين النفوس الذوَّاقة من حجابٍ، وهي أحاديث تشير إلى ثلاثةِ مفاهيمَ عميقةٍ: **الجمال**، **والسحر**، **والخطر**.

(1)- البيان والتبيين، ج1، صـ8.

(2)- المصدر نفسه، ج1، صـ12.

(3)- المصدر نفسه، ج1، صـ83.

أما الجمال، فقد رُوِيَ «أنَّ النبيَّ ﷺ قال للعبَّاس عمِّه وسَمِعَ منه كلامًا فصيحًا: بارِكَ الله عزَّ وجلَّ لك يا عمُّ في جمالك، أي في فصاحتِكَ»[1]. وهذا هو سرُّ التَّكليف الإلهي للأمَّة العربيَّة بحمل الرِّسالة السَّماويَّة؛ لأنَّها أمَّة شفافة الخواطر، مرهفة الحس، لطيفة الصنعة، تتذوق الجمال فتعرف أسراره وتعشقه وتتعلق به، وتهش له، وترتاح إليه، وتفرح به= وتتذوق القبيح أيضًا فتمَجُّهُ وتعافُه وتُعرِضُ عنه.

وليست هذه عصبيَّة أو هوى أو حميَّة جاهليَّة، معاذ الله أن يكون الأمر على هذا النَّحو، وإنَّما هي كلمة الحق التي شهد لها من ليس من أهلها إن لم يعاديهم، فترنَّم بحلاوة الكلمة العربيَّة، وطرب لها طرب الجواري بهديَّة العقد الثَّمين، فتفنَّن بتقريض العربيَّة وسحرها تفنُّنَ مَنْ تذوَّق فعرف، وشَعَرَ بالجمال حتى انتشى فأدركه الطرب[2].

أمَّا الكلمة النبويَّة الثَّانية، فقالها النبيﷺ في عمرو بن الأهتم لما أعجبه منطقه وحسْنُ تهدِّيه وتأتّيه، وقدرته على التماس المخرج، وستر الغرض باللفظ البديع، والتأليف العبقري، فقال النبيﷺ: «إن من البيان لسحرًا»[3]. وهي كلمة غنية عن التأويل، تذر القارئ يسبح بفكره في آفاق السمو والمجد والإعظام لهذا اللسان العربي الذي ينفذ إلى الأرواح كما تنفذ الرَّميةُ الماهرةُ في نحر الطريدة، أو هو أنفذُ من نفثِ السّحر وأخفى دبيباً من الرُّقَى وأشدُّ إطراباً من الغناء بتعبير التوحيدي[4].

فإذا كان أيسر الكلام المبين قادرًا على أن يثقب الخردل، وكانت الكلمة العبقريَّة النابهة قادرة على أن تصنع تاريخًا ممتدًّا من القيم والشيم والأخلاق، أو الفساد والضلال والعبودية=

(1)- البصائر والذخائر، ج2، صـ110. ربيع الأبرار، ج5، صـ201. لم أجد الحديث بنصه في كتب الصحاح، ولكني قرأت في (مسند الشهاب): «قال رسول اللهﷺ: جمال الرجل فصاحة لسانه». ج1، صـ164.

(2)- انظر ما قالته المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: «إنه لمدهش حقًّا، أن ترى البدوي الساذج، والمحارب الباسل يتمتعان بمفردات قادرة على التعبير عن أدق المشاعر والأحاسيس الإنسانية. فثروة العربية كانت تقدم للشاعر تعابير شتى عن أشياء وحاجات من جميع الزوايا والأنحاء. وهنا تكمن الملاحظة الدقيقة الصبورة لابن الصحراء التي كانت تلقط تعابير وجه ما، أو تدخل إلى أعماق نظرة ما، أو ترى أثرًا فوق الرمال فتصفه، أو ينال سمعها صرخة في الليل فتغنها بما فيها من لون ونسيم ورنين؛ وهذه هي الغبطة في الوصول إلى تعبير دقيق يصف حالة معينة تبتعد بكل صفاتها عن الحالات العامة، فتؤكد، بكلمات مقتضبة، ظلالها الخاصة، وفي هذا، لعمري، صعوبة تصل حد المستحيل، وأجواء غريبة نمت فيها هذه الكلمات فوصفت الأوضاع الحياتية بصدق وإخلاص». شمس العرب تسطع على الغرب، صـ511. **وجمال هذه الكلمة، وبعدها من ثَمَّ عن آفة الهوى = يمنحها الصدارة؛ بل يعلقها في صدر هذا البحث، ولكن للأمر شجونًا عريضة ربما أخرت ما حقه التقديم، وقدمت ما حقه التأخير، والله وليُّ الأمر والتدبير.**

(3)- صحيح البخاري، ج5، صـ1976.

(4)- البصائر والذخائر ، ج7، صـ104.

فينبغي أن يُعتَنى بها، ويكون صقلُها وتهذيبها رأسَ الأمر لأولي الأمر والعزم. وهذه قضيَّة كبرى، ومسألةٌ خطيرة أدرك بُعدها معلّمُ هذه الأمة منذ أن قال له ربُّه: (اقْرَأْ)، فقالﷺ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ»[1]. فإذا تأملت (أفعل) علمتَ من ورائها لماذا قال الجاحظ عن البيان: إنه ثغر، وكل الأمم له مطالب، ومن ترك ثغوره أو بيانه بلا حارس فهو على خُطَّةِ خسْفٍ، وعلى شفا إضاعة.

## البيانُ صناعةٌ لها آلاتٌ:

تقدَّمَ أنَّ الحياةَ في سرّها المتقادمِ ما هي إلا كلمة وحكمة تستقرُّ في المضغة المسماة (القلب)، وهي حكمة تحتاج إلى إعلان وبيان؛ ولهذا كرَّم ربنا سبحانه بني آدم بأن علمه البيان عن هذه الحكمة، وقضى أن تنزل على ألسنة العرب في أشرف معانيها وأتم ألفاظها وأنبل تراكيبها؛ ولهذا جاءت طبائعهم قابلةً لكلِّ فنٍّ من فنون اللغة، وغرائزُهُم منقادةً لكلّ صنعةٍ من صناعاتها، ووضعوا لكلٍّ من هذه الفنون والصناعات والمعارف/ الأسسَ والقواعدَ والمقاييسَ التي تضبطها وتحدُّها «ومن أجلِ ذلك قيل: شيئانِ لا نهايةَ لهما: **البيانُ والجمالُ**. وعلى هذا فإذا ركَّب اللهُ تعالى في الإنسانِ طبعًا قابلاً لهذا الفنِّ فيفتقرُ حينئذٍ إلى ثمانيةِ أنواعٍ من الآلاتِ:

**النَّوع الأول**: معرفة علم العربيَّة من النَّحو والتَّصريف. **النَّوع الثاني**: معرفة ما يحتاج إليه من اللغة، وهو المتداول المألوف استعمالُه في فصيح الكلام غير الوحشي الغريب، ولا المستكره المعيب. **النَّوع الثالث:** معرفة أمثال العرب وأيامهم. ومعرفة الوقائع التي جاءت في حوادث خاصة بأقوام، فإن ذلك جرى مجرى الأمثال أيضًا. **النَّوع الرابع:** الاطلاع على تأليفات مَنْ تقدَّمَه من أرباب هذه الصناعة المنظومة منها والمنثورة، والتَّحفُّظ للكثير منها. **النَّوع الخامس:** معرفة الأحكام السُّلطانيَّة في الإمامة والإمارة والقضاء والحسبة وغير ذلك. **النَّوع السَّادس:** حفظ القرآن الكريم، والتدرُّب باستعماله وإدراجه في مطاوي كلامه. **النَّوع السَّابع**: حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبيﷺ، والسلوك بها مسلك القرآن الكريم في الاستعمال. **النَّوع الثَّامن:** وهو مختصٌّ بالنَّاظم دون النَّاثر، وذلك علم العروض والقوافي الذي يُقَام به ميزان الشّعر»[2].

(1)- مسند أحمد بن حنبل، ج1، صـ22.

(2)- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ج1، صـ40-41.

وأظنُّ ((ويخطئُ في الحَدْسِ الفَتَى ويُصِيبُ)) أنَّ ابن الأثير (ت637هـ) لم يردْ بهذا أن يلمَّ المرء بكل ما جادت به القرائح، وأسفرت عنه الأقلام، فهذا مرامٌ صعبٌ، ومرتقًى عويصٌ، ومَنْ أراد أن يحيطَ بكل فنٍّ خُبرًا فسيدرك ذلك إذا شاب الغراب كما يقولون؛ بل أراد أن يأخذ المرء من كلِّ علم بطرف، ويعتاد كلام العرب الأوائل ويلم به دون انقطاع، ويحفظ رسوم العلم الذي لابدَّ منه؛ وهو النَّحو، ولابدَّ من وقفة ههنا قبل أن نعود إلى كلام ابن الأثير ؛ فقد تقدَّم القول غير مرَّةٍ: إنَّ النَّحو العربيَّ نظام يحكم الكلام، ويعقد بين ألفاظه معاقدَ النَّسب والألفة، ويبسط المعنى، ويفرش المراد، ويسفر بين المتكلم والسامع سِفارةَ البيان عن القصد، وكشف الغامض، وإماطة الإبهام.

بمعنى آخر: للنحو وظيفتان؛ الأولى غايتها الصواب والخطأ، وتجنب معرَّة اللّحن التي تفسد الكلام وتعطّلُ أغراضه ومقاصده. والثانية: بيانيَّة جماليَّة؛ وهي أن يحلِّقَ البصير بجواهر الكلام، المتمكّنُ من هذا الباب، في فضاء اللغة الرَّحب البعيد؛ ليُلبِسَ الفكرةَ الحرَّةَ، والخاطرَ النَّفيسَ، الأبَّهةَ والرونقَ والجمالَ، هكذا يصير النَّحو فنًّا خالصًا، وفلسفةً معشوقةً تطرب لها الروح، وتهش لها النفس؛ لأنَّ النَّحو العربيَّ في أصل وضعه وسرِّ نشأته، إحساسٌ بالمعنى، وشعورٌ شفَّافٌ به، يعطيك بالنظر الحصيف، والفكر المدقِّقِ/ صورةً رائعةً للعقليَّةِ العربيَّةِ في أمَّةٍ خَلَتْ، ورحم الله التوحيدي عندما سأل أبا سليمان عن النحو والمنطق وفرق ما بينهما، فكان من جملة كلامه على النحو، وعظيم ما وصفه به أنه «**يرتّبُ الَّلفظَ ترتيبًا يؤدِّي إلى الحقِّ المعروفِ أو إلى العادةِ الجاريةِ،.. ودليلُ[ـه] طباعيٌّ.. يتبعُ ما في طباعِ العربِ،.. [وهو] أوَّلُ مباحثِ الإنسانِ**»[1].

فإذا نظرنا من هذه الزاوية الوجدانيَّة البعيدة، إن صحَّ التَّعبيرُ أو جاز، إلى ما حصَّله المجدّدون في علم النَّحو= وجدنا اجتهادهم باطلاً، وسعيهم كسرابٍ بقيعةٍ يحسبُهُ الظمآنُ ماءً، واجتهادهم ضربًا من التخليط الذي لا يتعدَّى دخول أبواب من الخلاف تفضي إلى فضاءٍ يلهثُ وراءه الباحثون عن الشُّهرة والنجوميَّة. والله عليمٌ بما تنطوي عليه الجوانحُ وتخفيه الصُّدور.

ونعودُ إلى كلامِ ابنِ الأثير؛ لأنَّه الأصلُ الذي تنبني عليه المعرفة الجادَّة بصناعة البيان؛ فإذا أحسَّ القارئ بأنَّ الرجل قد أكثر وأوغل، وفرَّع وشعَّب، وتجشَّم أشياء لا يبلغها الإنسان إلا بعد أن يتنفَّسَ به العمر ويبلغ أقصاه = فإن لها تصرفًا آخر يجعلها أخفَّ وأسهلَ؛ فكلُّ ما سوى

(1)- المقابسات، التوحيدي، صـ171.

علم النحو، يمكن للمرء أن يحصّلَه باستماع كلام العرب من الشّعر والنّثر، والخطب والرسائل، وقراءة الأقلام التي نسجت على منوال الأوائل فأجادت وأطربت، وقراءة القرآن الكريم بالتدبُّر والنّظر في طرائقه البيانيّة، والدربة المستمرّة على إدراجه في مطاوي الكلام كما قال ابن الأثير. وقد أبدع العبقريُّ الفذُّ ابنُ خلدون(808هـ) في شرح الملكة اللسانيّة، ومن أين تأتي، وكيف تنشأ، فذكر «أنَّ حصولَ ملكة اللسان العربي إنَّما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب، حتَّى يرتسم في خياله المنوالُ الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج هو عليه، ويتنزَّل بذلك منزلة من نشأ معهم، وخالط عباراتهم في كلامهم، حتَّى حصلت له الملكة المستقرَّة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم»[1]. وقد أكَّد هذه الوصيَّة النَّفيسةَ بأخرى أوضحَ منها وأدلَّ وأشفى؛ فـ«هذه الملكة كما تقدَّم إنَّما تحصل بممارسة كلامِ العرب وتكرره على السَّمع والتفطُّن لخواصِّ تركيبه، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان، فإنَّ هذه القوانين إنما تفيد علمًا بذلك اللسان، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها»[2].

بعبارةٍ أخرى: قراءة قواعد النَّحو وأصوله، وفهم أبواب البلاغة وفنونها، والإحاطة بعلوم العربية من أقطارها ـ لا تغني شيئًا إلا بمخالطة الكلام العربي والنسج على منواله؛ «ولذلك نجد كثيرًا من جهابذة النُّحاة، والمَهَرة في صناعة العربيَّة، المحيطين علمًا بتلك القوانين، إذا سُئِل في كتابة سطرين إلى أخيه أو ذي مودَّتِهِ أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده أخطأ فيه عن الصواب وأكثر من اللحن. ولم يجد تأليف الكلام لذلك، والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربي»[3]. والأمر في هذا ظاهر لا يحتاج إلى تبيين.

على أنَّ الميلَ الدائم إلى مزاولة الكتابة، والتعلُّقَ المحضَ بهذه الصناعة الشريفة، من أكثر ما يفتُقُ اللسان، ويُحِدُّ القلمَ، ويُرهِفُ سنانَهُ، ويضرِبُ له المدى، ويوضِّحُ الهدى، ويقيمُ له الصُّوَى، وقد ذكر ابن الأثير في شرح آلاته التي سمَّاها لهذه الصَّنعة «الاطلاعَ على كلام المتقدِّمين من المنظوم والمنثور، فإن في ذلك فوائدَ جمَّةً، لأنَّه يُعلَمُ منه أغراضُ النَّاسِ ونتائجُ أفكارِهِم ويُعرَفُ به مقاصدُ كلِّ فريقٍ منهم، وإلى أين ترامَتْ به صنعتُهُ في ذلك، فإنَّ هذه الأشياءَ ممَّا تشحَذُ

(1)- المقدمة، ج2، صـ386.

(2)- المصدر نفسه، ج2، صـ387.

(3)- المصدر نفسه، ج2، صـ385.

القريحةَ، وتذكِي الفطنةَ، وإذا كانَ صاحبُ هذه الصِّناعةِ عارفًا بها تصيرُ المعاني التي ذُكِرَت، وتَعِبَ في استخراجها، كالشَّيء الملقَى بين يديه، يأخذُ منه ما أرادُ، ويتركُ ما أرادُ»[1].

وهذا هو الأصلُ الذي يستصحب ما سواه من آلاتٍ وطرقٍ وأساليبَ تعينُ على امتلاك ناصية البيان وإن كان حَرُونًا شَمُوسًا لا ينقاد لساعته؛ أعني أنَّ البيان رياضةٌ ودربةٌ ومرانٌ، ومن عوَّدَ لسانه الكلامَ الجزل، والتَّركيب العالي، واللفظة الحرة العتيقة= اعتاد معه وارتاض هذا الضرب، وألفه، وصار قريبًا منه إلى أن يتغلغل في جوفه، ويجري على لسانه وقلمه؛ كأنه من أولئك الذين أتقنوا فنَّ الأسلوب بلطف هاجسهم، وصفاء فكرتهم، واتقاد طبعهم، وطول وحدتهم، وسعة لغتهم، وقد قرأت لعلماء البيان العربي وأمرائه الأفذاذ فوجدتُّ هذا ظاهرًا في أساليبهم، يأخذ منهم تالٍ عن أوَّلٍ، ويتعلم متأخّرٌ عن متقدّمٍ، بالفطنة والذَّكاء، لا بالتَّقليد الأعمى الذي يقتلُ جمالَ الكلام ويتحيَّفُه.

إذاً، فالكتابة فنٌّ وصناعةٌ، وما دامت كذلك، فما على المحبِّ لهذا الفنّ، المتعلق به، المتردّد عليه= إلا أن يجِدَّ ويجتهِدَ في قراءة الكلام العربي المبين، ويكرره على سمعه ولسانه صباح مساء، وأن يكون قَرِمًا إلى هذا الضرب ممَّا جادت به العقول البشريَّة= يُرجِع النَّظر فيه كرَّات، ويُشرِب النفس حلاوته، ويربأ بنفسه أن يقدِّمَ لها شيئًا من الرجيع الذي يدور على ألسنة الكثيرين في هذا الزَّمن، عندها فقط يصبح للإنسان أسلوبُهُ الخاصُّ، وطريقتُهُ المعروفةُ، فلا تقرأ من كلامه سطرًا أو بعض سطرٍ حتَّى ينطقَ لك بأنَّه خارجٌ من لسان فلان، وقطعة من وجدانِهِ وسرِّ نفسِهِ، وهكذا تتحوَّل الكتابة إلى فنٍّ يختلط بطبعِ الإنسان وطابعه ورسمه ونفسه ولحمه وعظمه، وعندها أيضًا تكون الكتابة عشقًا كما يقول ابن ثوابة الذي ذكر أنَّ أسلوب الجاحظ مدبَّرٌ له بأحوالٍ منها: الطَّبع والعلم والأصول والمنشأ والعمر **والعشـــق**[2]، وإذا سألتني كيف تكون الكتابة عشقًا؟ فسوف أقول: أنشئ كلامًا لطيفًا، وعبارةً حلوةً، وتركيبًا جيدًا، وجِدَّ على أن تفرِغَ فيها معانيَ قلبِكَ، وسرَّ نفسك، وحذْقَ خاطرك، وصُبَّ فيها وجدانَك صبًّا= فإنَّك واجدٌ لا محالةَ أنَّ هذه الكلمة صارت كبعض نفسك، مثلُها في ذلك مثلُ السَّمع والبصر والفؤاد وغيرها، تذبُّ عنها، وتذودُ؛ ولهذا يجنُّ المرء جنونًا إذا أُغِيرَ على كلامٍ له دون علمه أو مشورته، وكأنما أُغِير على ماله وأرضه وولده، ولا عجب؛ فالكلمة ظلُّ النَّفس، وترجمانُ الرُّوح، ومركبُ الخواطر

(1)- المثل السائر، ج1، صـ59.

(2)- الإمتاع والمؤانسة، ج2، صـ387.

والأفكار، فيها النَّشوةُ التي لا تعدلها نشوةٌ. وقد رَوَى التوحيديُّ: أن كاتبًا سألوه: «فيم لذَّتُكَ؟ قال: في معنى أنهيته، **وكلامٍ أنشيته**»[1].

نعم، الكلمة الحرة نشوةٌ ولذَّةٌ، ولها طربٌ ما بعده طرَبٌ، والكلمة النَّفيسة مروءةٌ ونجابةٌ ومجدٌ وشموخٌ يضاهي شموخ الملوك وكبرياءهم، ولهذا قال يونس بن حبيب: «ليس لعيي مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء، ولو بلغ يَأْفُوخُهُ أعنانَ السَّماءِ»[2].

هذا ديدن الأجداد، ومنهاج الأوائل في أمَّةٍ خَلَت، كانت تقدِّسُ البيان قبل أن يتنزَّلَ القرآن على صدر نبيها المرسل، وبعده، وتعتني به وتهذِّبُه وتصقله بيدٍ، وتصقلُ السَّيف وتصنع الترس والرمح بيدٍ أخرى؛ وهذا هو السرُّ العظيمُ المغيَّبُ وراء قوتها ونفوذها وسطوتها التي بلغت ما بلغ الليل والنهار؛ فوراء الكلمة القويَّة الماجدة عقلٌ قويٌّ ماجدٌ صنعها ليصنعَ بها تاريخًا وعزًّا وهيبةً، ولكلِّ زمانٍ ألفاظٌ تحاكيه، ولغةٌ تشبه أحواله وظروفه وأهدافه.

## خاتمة:

(1)- البصائر والذخائر، ج2، صـ97. أراد: أنشأتُه فخفَّفَ لتُشاكِلَ (أنهيته) في وزنها وخفتها.

(2)- عيون الأخبار، ج2، صـ175.

أضعُ القَلَمَ، وفي النَّفسِ شؤونٌ مترامياتٌ، بيدَ أنَّ هذا الفنَّ متَّسعٌ، ومذهبه متشعّبٌ يضيق به نطاقُ الكلامِ في بضعِ صفحاتٍ، وقد وَصَلَ الكلام بآخرةٍ إلى أربعِ وصايا في صنعةِ البيانِ يشدُّ بعضُها بعضًا:

**الأولى: صناعةُ البيانِ زكاةُ اللّسانِ:** ما دام لكلّ شيءٍ زكاةٌ تطهّرُهُ، فإن الكلام العذب، والعبارة الحلوة، والجملة الأنيقة= زكاة اللسان الحرِّ الذي ينبغي أن يربأ صاحبه ألَّا يغمسه إلا في حُرِّ اللفظ وشريف المعنى وعذب البيان، وأن يكافِحَ ليأخذَ له من الجزالة حظًّا وافرًا، ومن الجمال والبيان نصيبًا ظاهرًا، وتلك هي المفاتيح الشريفة لكل ما علا في الحياة وشرُف؛ وما من أحدٍ جافي الطبع، فظًّا غليظ القلب إلا ويهزه القول الحسن، وتستعطفه العبارة اللطيفة. وعدِّ عن ذا وخذ معي مقولة أبي عثمان الجاحظ التي يقول فيها: «بالبيانِ عَرَفَ الإنسانُ القرآنَ»[1]، وكفى بإتقانِ البيانِ مقنعًا ومفازًا مادام في صُحبتِهِ تزلُّفٌ إلى رَبِّ البيانِ ومنزِلِهِ.

**والثانية: القلمُ مركبُ البيان:** البيان صناعة مركبها قلمٌ في ساعة خلوة، يقيد به المرء ما وسوست به النفس، وجاش به الصَّدر؛ فهو مطيَّة البيان النبيل ومركبُه، ومخرجُ الفكرة المحتجبة في سرِّ الضمير إلى آفاق الوجود، وهو القيد الذي شرَّفَ الله به الإنسان ليقيّدَ به عوازِبَ الفكر، وسانحاتِ الخواطر؛ بلفظ آخر: هو آلة لرياضة اللسان وسياسته؛ على صاحبه أن يجول به في رياض المعاني السامية، والفِكَر العالية يتنوَّق لها من الألفاظ ما يظهرها بالمظهر الحسن والتركيب الجذَّاب. والصبر على تدريب القلم مفضٍ لا محالة إلى طبعٍ حسَّاس يقتفي دبيب الخواطر في القلوب لينطق بها بلفظ فصيح وعبارة أنيقة.

**والثالثة: المصادر والأصول مضمار البيان:** الرجوع إلى المصادر العربية الأصيلة، والانتقال فيها من فن إلى فن، أصل عظيم من أصول الملكة اللغوية، يتعلم به المرءُ الِّلسانَ المُضَريَّ الفصيحَ، ويتعلمُ منه مذهب الإبانة عن المقاصد كمن نشأ في ذلك الجيل ولُقّن الإبانة عن المقاصد منهم كما يقول ابن خلدون. وهذه تجربة يجب أن تبدأ من المراحل الدراسية الأولى، وتُنتَقَى لها عيون النصوص والأخبار والقصص التي تعلم المروءة والنجابة، وتعلم القيم والشيم والأخلاق، وأن يحفظ ناشئ الفتيان منها ما يستطيع؛ لتكون رياضة للفهم، ومادة للفصاحة، وتهذيبًا للطبع.

(1)- الحيوان، ج1، صـ46.

**والرابعة: النحو سراج البيان:** وهذه أم الوصايا الثلاث ورأسها ورائدها؛ بل هو رأس المروءات، و«ما أحدَثَ النَّاسُ مروءةً أحبَّ إليَّ من طلبِ النَّحو»[1] كما قال الزُّبيريُّ؛ ومَنْ أراد زكاة اللسان بغير نحو فقد قصَّر، ومَنْ ركِبَ مركبَ الكلمة بغير هذه الآلة فقد خَرَق السَّفينةَ بفأسِهِ على عمدٍ ليغرِقَ أهلَها، ومَنْ نزلَ ميدانَ البيانِ متسلّحًا به مالئًا منه اليدَ فقد فازَ وانتَصَرَ؛ فهو سائس المعاني، يجمع منها ما تفرَّقَ، ويُلِمُّ ما تشعَّثَ، ويُذلِّلُ ما شَمَسَ، ومفتاحٌ لمغاليقِ الكلامِ= الحاجةُ إليه واجبةٌ لفهم الكتابِ المنزَلِ، وكلامِ النبيّ المرسَلِ «لا ينكِرُ ذلكَ إلَّا مَنْ يُنكِرُ حِسَّه، وإلَّا مَنْ غالطَ في الحقائقِ نفسَه»[2]. كما يقول عبد القاهر.

فالنحوُ فلسفةٌ لغويَّةٌ، وضربٌ من الإحساسِ الشَّفافِ بطبيعةِ اللَّفظ العربيّ، لا يقفُ مطلقًا عند الرَّفعِ والنَّصبِ والجرِّ، وَمَنْ تجاوَزَ هذه الحلْقةَ ـ دون أن يهملَهَا ـ عَرَفَ مغزى الإحساسِ والطبيعةِ الوجدانيَّةِ= وعَرَفَ أيضًا أنَّه آلةٌ لهندسةِ العقلِ، تجعلُكَ قادرًا على توظيفِ القرآنِ والشِّعرِ والمثلِ، والانتفاعِ بكلامِ العربِ، والنسج على منواله، وهذا بابٌ جيّدٌ من شجاعةِ العربيَّةِ يحتاجُ إلى سياسة.

(1)- البصائر والذخائر، ج6، صـ189. نسب الكلام في ربيع الأبرار للزمخشري/ إلى الزُّهري؛ محمد بن شهاب. ينظر: ج4، صـ63.

(2)- دلائل الإعجاز، صـ28. «إذ كان قد عُلمَ أنَّ الألفاظَ مغلقةٌ على مَعانيها حتّى يكونَ الإعرابُ هو الذي يفتحها، وأنّ الأغراضَ كامنةٌ فيها حتى يكونَ هو المستخرِجَ لها، وأنه المعيارُ الذي لا يُتبيَّنُ نُقصانُ كلامٍ ورُجحانهُ حتى يُعرضَ عليه، والمقياسُ/ الذي لا يُعرف صحيحٌ من سقيمٍ حتّى يُرجَعَ إليه». صـ28.

## المصادروالمراجع


ـ **الإحكام في أصول الأحكام**، ابن حزم الأندلسي، عن نسخة الشيخ أحمد شاكر، قدم له: أ. د. إحسان عبَّاس، (دط)، 1979.

ـ **الإمتاع والمؤانسة**، أبو حيان التوحيدي، تح: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003.

ـ **البصائروالذخائر**، أبو حيان التوحيدي، تح: د. وداد القاضي، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1988.

ـ **البيانُ والتَّبيينُ**، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط7، 1998.

ـ **الحيوان**، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1969.

ـ **الخصائص**، ابن جني، تح: محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، لبنان، ط2، (دت).

ـ **دلائل الإعجاز**، الإمام عبد القاهر الجرجاني، تح: محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، ط3، 1992

ـ **ربيع الأبرار ونصوص الأخبار**، الزمخشري، تح: عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ط1، 1192.

ـ **رسالة الغفران**، لأبي العلاء المعري، تح: د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط9، 1977.

ـ **رسائل الجاحظ**، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1979.

ـ **شمس العرب تسطع على الغرب**، المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه، نقله: فاروق بيضون – كمال دسوقي- راجعه: مارون عيسى الخوري، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط8، 1993.

ـ **صحيح البخاري**، خرج أحاديثه: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق، سورية، ط3، 1987.

ـ **عيون الأخبار**، ابن قتيبة، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط2، 1996.

ـ **الكامل**، المبرد، تح: د. محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، ط2، 2013.

ـ **المتنبي**، محمود شاكر، دار المدني، جدة، السعودية، (دط)، 1987.

ـ **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ابن الأثير، قمه وعلق عليه: د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، الفجالة، القاهر، مصر، ط2، (دت).

ـ **مقدمة ابن خلدون**، تح: عبدالله مخمد الدرويش، دار يعرب، دمشق، سورية، ط1، 2004.

ـ **مسند أحمد بن حنبل**، تح: السيد أبو المعاطي النوري، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1998.

ـ **مسند الشهاب**، محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي، تح: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1986.

ـ **معجم الأدباء**، ياقوت الحموي، تح: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1993.

ـ **المقابسات**، التوحيدي، تح: حسن السندوبي، دار سعاد الصباح، الكويت، ط2، 1992.

ـ **الموازنة**، الآمدي، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط4، 1960.

ـ **وحي القلم**، الرافعي، اعتنى به: د. درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، (دط)، 2002.

ـ **الوساطة بين المتنبي وخصومه**، القاضي الجرجاني، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، المكتبة العصري، صيدا، بيروت، لبنان، ط1، 2006.